الفصل الثامن

إشباع حاجة الطفــل

إلي الأمان الاقتصادي

تُشير هذه الحاجة إلي مدي شعور الطفل بالوفاء باحتياجاته الأساس، فالشهور المبكرة من حياة الطفل الآخذ في النمو توفر له الشعور بالأمان الاقتصادي عن طريق إمداده بالطعام والشراب، والكساء، والمأوي الملائم.

وفي معظم الأحيان نجد استقراراً في العلاقات داخل الأسرة طوال تلك الفترة من العُمْر، ولعلّ السبب في ذلك يرجع إلي أنَّ الطفل الصَّغير لا يستطيع إيصال ردود أفعاله، وليس لديه أية مقاييس للأمان الاقتصادي.

والطفل يميل لتعلُّم أنَّ بيئته الخاصَّة (الأسرة) مهما كان شأنها أو مستواها هي بيئة يمكن الاعتماد عليها، ويثق في أنَّها سوف تستمر في توفير الأمان الاقتصادي له، وإذا توافرت له هذه الثقة واقعياً في استمرار الإمداد باحتياجاته الأساس في الحياة فإنَّ هذا المقياس يصبح مقبولاً.

ولكن هذا المقياس يتغيَّر كثيراً تبعاً لاختلاف الأُسر. وبقدر ما يشعر الطفل بأنَّ نظام حياته والوفاء باحتياجاته الأساس سوف يستمر فإنَّه تتاح له فرصة أخري لبداية جديدة قويَّة وسط مجموعة الأشياء التي نُطلق عليها « الأمان الداخلي».

وبمرور الشهور والسنين يجب أن يستمر هذا الموقف نسبياً، أمَّا إذا واجه تهديداً أو شكوكاً قويَّة، وقلقاً حول أمنه الاقتصادي فإنَّ الشخصيَّة تهتز وتضطرب٠ وإذا ما صادف احتياج الطفل للأمان الاقتصادي معوقات أو إحباطات فإنَّنا نعود فنتوقع نتائج سيئة تنعكس علي شخصية الطفل النامي.

● كيف نكتشف حاجة الطفل إلي الأمان الاقتصادي ؟

لا يُقاس الأمان الاقتصادي بالثراء الفاحش، أو ما يمتلكه الآباء من ممتلكات، بل في استقرار المركز المالي وضمان استقرار هذا المركز٠

وسنحاول في الفقرات التالية التعرُّف علي الأطفال الذين يُعانون من اضطراب أو قلق بسبب أن مركزهم الاقتصادي (بصرف النظر عمَّا إذا كان سيئاً أو جيداً) غير مستقر وبالتالي غير آمن:

● هؤلاء الأطفال يبدو المستقبل القريب بالنسبة لهم إمَّا غير ثابت أو مُهدد، إنَّهم قلقون خوفاً من أن يتغيَّر الموقف الحالي تغيُّراً كبيراً٠

وفي بعض الأحيان قد يُعبِّر هؤلاء الأطفال عن قلقهم بصوتٍ عالٍ، فقد نسمعهم يقولون: «أنا خائف فقد يفقد أبي وظيفته» !! أو قد يقول بشيءٍ من الارتياب: « عندما أصبح عجوزاً هل سأكون فقيراً مثل جدي » !!

● وعـادةً نسـمع هـؤلاء الأطفـال يعكسـون قلـق والديهـم، كأن يقـول الطفـل: «ماما قالـت إنَّـه إذا مـرض أبـي فإنَّهـا لا تعـرف مـا الـذي تفعلـه؟ »، أو: «قـال أبـي إنَّنـا لـو أنجبنـا أطفـالاً آخريـن فسـيكون مـن الصَّعـب أن نحصـل علـي احتياجاتنـا كمَّـا كان في السَّـابق» ٠

وقـد نسـمعهم يقولـون أيضـاً: «إنَّنـي في حاجـة إلـي الذهـاب إلـي طبيـب الأسـنان ولكـن أمـي قالـت لـي أنتظـر قليلاً٠٠وربمَّـا لـن أسـتطيع الذهـاب إليـه أبـداً» !!٠

وقـد يقـول الطفـل إلـي والدتـه مُعاتبـاً: « لقـد وعدنـي أبـي مـرَّات عديـدة أن يحضـر لـي سـاعة اليـد، ولكنَّـه في كُلِّ مـرَّة يطلـب منـي التأجيل..فهـل سيسـتمر يـا ماما الأمـر علـي هـذه الحـال !؟»

● وعـادةً مـا يقلـق الأطفـال نحـو احتمـال الانتقـال مـن المسـكن الـذي يسـتقرون فيـه، فقـد نسـمعهم يقولـون: «إذا لـم تتحسَّـن أحوالنـا الماليـة فلـن نعثـر علـي مسـكن جديـد غيـر مسـكننا هـذا.. الآيـل للسـقوط».

أو قـد نسـمع أحدهـم يقـول والأسـى يسـيطر عليـه: «سـوف يضطـر أخـي الأكبـر لتـرك المدرسـة والعمـل في إحـدى الـورش لأنَّ مـرض أبـي قـد طـال للغايـة».

وقـد يأتـي الـدور عليـه لدفـع ثمـن عـدم الاسـتقرار الاقتصـادي، فيشـكو لأحـد أصدقائه،وهـو يقـول والألـم يعتصـره: «سـأضطر للعمـل

بعد الظهر بعد خروجي من المدرسة حتى أستطيع الإنفاق علي أُسرتي بعدما أصبح أبي بلا عمل» !!

● وكثيراً ما يُشير مثل هؤلاء الأطفال الذين يفتقرون إلي الأمان الاقتصادي إلي وظائف آبائهم غير المستقرة، أو إلي الأجور المتدنية التي يحصل عليها آبائهم من أعمالهم..أو غير ذلك من العوامل الماديَّة التي يشعرون بأنَّها قد تتعرَّض للتهديد، إمَّا حالياً أو في المستقبل، أي أن هؤلاء الأطفال يفتقرون إلي الثقة في المستقبل.

● وأفعال هؤلاء الأطفال كثيراً ما تعكس أعراض عدم الأمان الاقتصادي، وهم يختلفون تماماً من حيث ردود أفعالهم وتصرُّفاتهم، فأحياناً نجد طفلاً يبدو منزعجاً حول خلفية أُسرته الاقتصاديَّة، إنّه قد يُحاول ــ عادةً ــ أن يحول دون أن يعرف النَّاس أي شيء عن وضع أُسرته الاقتصادي.

وقد يرفض قبول أي مساعدات أو هدايا من أي جهةٍ أياً كانت، ومثل هذا الطفل يكون علي درجة عالية من الحساسية.

وعلي النقيض من هذا، الطفل الذي يتقبَّل المساعدات والهبات عن طيب خاطر. وقد نجد بعض الأطفال ممَّن يدافعون عن مركز أُسرته الاقتصادي، وبالتالي مركزه الاقتصادي هو.

وهناك أطفال علي نفس الشاكلة ولكنَّهم يبالغون في ذلك بأن يقوموا بالتفاخر والمباهاة بمَّا تمتلكه الأسرة من أموال وممتلكات، وبالطبع بالكذب والافتراء.

وهناك فئة من الأطفال تتولَّد لديهم عُقدة النقص والإحساس بالدونية فيلجأون إلي أساليب التعويض اللاَّسوية بحيث يميلون إلي اقتناء العديد من الأشياء عديمة الفائدة من باب النقص، كأنَّه يقول للناس: «أنا غني» !!

● وهناك من الأُسر التي تنمي الحاجة إلي الأمان الاقتصادي تتحدَّث كثيراً عن الأحوال الاقتصاديَّة وتُشرك أطفالها في تلك الاهتمامات، فالأب يتحدَّث عن نظام شركته الآخذ في نظام «الخصخصة» وما سينجم عنه من إجباره علي «المعاش المبكر»، وبالتالي سيكون الغد غير مضمون أو غير مأمون.

فيشعر الطفل بحجم المأساة التي تنتظره وأسرته، فيبدأ في متابعة الأخبار الاقتصاديَّة التي تتعلَّق بمشكلات المجتمع الاقتصاديَّة ممَّا تصدمه في كثير من الأحوال.

وربمَّا يشعر بالاكتئاب نحو عدم الاستقرار الاقتصادي الحالي والمستقبلي. وفي تطور آخر فقد يشعر بالمرارة تجاه موضوعات الأغنياء،و الفقراء، وقد يشعر بأنَّ المجتمع كلَّه مسؤول عن سوء مصيره ومصير أسرته !!

● وفي المدرسة نجد أن عدم الأمان الاقتصادي قد يتزايد عندما يطلب المُعلِّم تكليف كُلّ تلميذ من تلاميذه بعمل وسيلة تعليمية، أو عندما يطلب منهم جمع التبرُّعات.

أو عندما يطلب مُعلِّم التربية الرياضيَّة تكليف كُلّ تلميذ بضرورة شراء زى رياضي خاص لحصته، أو تكليفهم بشراء أدوات تلوين مناسبة لحصة التربية الفنيَّة٠٠وغير ذلك.

وكذلك قد يحدث في المدرسة ما قد يحدث في البيت لأنَّ بعض المُعلِّمين قد يوحون بعدم الأمان الاقتصادي من خلال الطريقة التي يتحدثون بها عن المستقبل الاقتصادي للمجتمع٠

وهنا٠٠نعود مرَّة أخري ونُشير إلي أنَّ مشاعر عدم الأمان الاقتصادي تتولَّد في نفوس الأطفال من كُلّ المستويات الاجتماعيَّة، فقد يتواجد في الفصل الدراسي الواحد أطفالاً من أُسر تنتمي إلي الطبقات الفقيرة، ومن الطبقات الوسطي، ومن الطبقات العليا.

وقد نجد أطفال الفئتين أو الطبقتين الأخيرتين كثيراً ما يتحدَّث أبائهم عن النفقات، وارتفاع أسعار السلع الجنوني، وارتفاع الضرائب، والتضخم، والأزمة الاقتصاديَّة العالمية ٠

وقد يتوقع هؤلاء الآباء الكثير من الأضرار الاقتصاديَّة وبالتالي المزيد من التشاؤم نحو المستقبل.

وهـؤلاء الآبـاء لا يدركـون أن بعـض مـا يقولونـه لـه وقـع شـديد علـي الاسـتقرار العاطفـي لأطفالهـم، وبذلك٠٠فـإنَّ الإحسـاس بعـدم الأمـان الاقتصـادي يمكـن أن يتواجـد بـين أطفـال الأغنيـاء مثلمَّـا يتواجـد لـدي أطفـال الفقـراء٠

● كيف نشبع حاجة الطفل إلي الأمان الاقتصادي ؟

● يجـب أن يحـذر المُعلِّمـون في الفصـول الدراسـيَّة التـي تضـم أطفـالاً مـن أُسـر متفاوتـة كثيـراً بالنسـبة لإمكاناتهـا الاقتصاديَّـة مـن المطالـب الماديَّـة التـي تُعتبـر سـهلة التحقيـق لتلاميـذ الطبقـة الغنيـة بينمـا تكـون بالغـة الصعوبـة لتلاميـذ الطبقـة الفقيـرة.

ولذلـك يجـب علـي المُعلَّمـين عندمـا يطلبـون أدوات تتعلَّـق بالكتب، والكراسـات، والأقلام٠٠إلـخ، أن يكـون شـراؤها في مقـدور جميـع التلاميـذ مـن المسـتويات الاقتصاديَّـة المختلفـة.

● يجـب علـي المربـين والمُعلِّمـين في المدرسـة أن يتعاونـوا مـع المسـؤولين عـن الخدمـات الاجتماعيَّـة بحيـث يسـتطيع أطفـال الأُسـر الفقيـرة مـن الحصـول علـي الخدمـات التـي هـم في أمـس الحاجـة إليهـا، مـع الوضـع في الاعتبـار أن تُقـدَّم هـذه الخدمـات بمـا لا يجـرح شـعور هـؤلاء الأطفـال.

ويجدر بالمربين والأخصائيين الاجتماعيين القيام بالأبحاث الدقيقة عن مثل هذه الخدمات؛ لأنَّهم بذلك سوف يقدرون تقديراً واقعياً حجم هذه الخدمات،ونوعيتها٠

● بعض الأطفال من التلاميذ قد يواجهون مشكلات اقتصادية حلت بأُسرهم، فيبدو لديهم إحساس قوي بفقدان الأمل فيما يختص بالمستقبل القريب أو البعيد،

لذا.. يجب الحديث مع هؤلاء الأطفال وطمأنتهم بخصوص المستقبل. كمَّا يستوجب الأمر دراسة حالاتهم من جميع الوجوه، وتشجيعهم علي دراسة سير العظماء في الشرق والغرب الذين اجتازوا مثل هذه الأزمات بالعمل، والصبر، والتنازل عن بعض الاحتياجات لفترات مؤقتة٠

● يستطيع الآباء والمربون أن يساعدوا أطفالهم علي النظر بوضوحٍ إلي الدور الذي تلعبه الأشياء المادية فيما نُسميه بـ «الحياة الطيبة».

علي أن يفهموا بكُلِّ صراحة أن دور الأمان الاقتصادي ليس مُجرَّد تجميع الأموال واكتناز الممتلكات، بل الوفاء باحتياجاتهم الأساس، ومساعدة الغير ما أمكن ذلك٠

● يستطيع المربون والمُعلِّمون بالتعاون مع هيئة المدرسة أن يقوموا بمساعدة التلميذ الفقراء بطرق شخصية، بحيث يتم الترتيب لحصولهم علي المال المناسب وخصوصاً في الأعياد الدينية.

أو الحصول علي تذاكر مجانية لحضور مباريات رياضية، أو حفلات موسيقية، علي أن يتم ذلك بمنتهي السرية والتكتم.

● هناك أطفال كثيرون يريدون بالفعل لو تتاح لهم الفرصة لكسب بعض المال، وأحياناً كثيرة لا يهتم الآباء والمربون بهذه الناحية الإيجابيَّة في شخصية مثل هؤلاء الأطفال الاهتمام الكافي.

ولكن يجب عليهم التوصل إلي معرفة احتياجات الأطفال المُلِحَّة، وأن يقوموا بمبادرة البداية في مساعدتهم علي التخطيط للحصول علي دخل إضافي مهما كان صغيراً.

كأن يشتركوا في مشروعات إنتاجية من خلال الأنشطة المدرسيَّة المختلفة، مثل: عمل الشربات والعصائر، والمربي، وبعض المنظفات، والمفروشات..إلخ.المهم أن يُساهم الطفل بالعمل ليكسب بعض المال الذي يحتاجه.

● يستطيع الآباء والمربون أن يُساعدوا أطفالهم في إدراك أنَّ التعليم، واكتساب المهارات الخاصَّة، والمثابرة، كُلّ هذه الأشياء تُساعد علي تحسين الأوضاع الاقتصادية.

كمَّا يستطيعون وهم يتحدَّثون مع الأطفال أن يبثوا في نفوسهم الثقة والأمان الاقتصادي مهما كانت الظروف صعبة.

وأن يتم إقناعهم أنَّ كُلَّ جهد مبذول لابد أن يكون له عائده بصرف النظر عن المجال الذي يبذل فيه الإنسان جهده.

كمَّا يتحتم علي الآباء والمربين في هذا الصدد أن ينقلوا إليهم أن العالم يحتاج إلينا، كمَّا نحتاج نحن إليه، وأنَّه ليس صحيحاً أن هناك أعمال تدعو للاحترام وأخري علي النقيض من ذلك، فكُلّ الأعمال مهمة، وليس صحيحاً أن نقول هذا الإنسان لا فائدة منه مادام يبذل كُلّ جهده في التعلُّم والتحصيل.

● يجب أن يتحاشى المُعلِّمون بالمدرسة من تدوين أسماء التلاميذ الذين تبرعوا لمشروعٍ ما، أو الذين لم يتبرعوا.

ويجب أن يتحاشوا أي إشارة إلي أن الفصل جميعه تبرع للمشروع (الفلاني) فيما عدا ثلاثة من تلاميذ الفصل؛ لأنَّ ذلك فيه إشعار للطفل بتهديد الأمان الداخلي لديه، ويشعر بخطورة الموقف الاقتصادي الذي يُشعره بالنقص و الإحساس الدونية.

● يجب أن يتحاشى الآباء والمربون عملية التعميم فيما يختص المستقبل الاقتصادي، وأن يتجنبوا عند الحديث مع الأطفال بأن يقولوا علي سبيل المثال: «الأوضاع تبدو شديدة السوء» ، أو أنَّ: «المستقبل لا يبدو مشرقاً».

وأن يتحاشوا زيادة مخاوف قد تكون موجودة بالفعل ممَّا يجعل أفكار الطفل المتشائمة تتثبت بما لا يدع مجالاً للشك لديه وفي هذا خطورة شديدة علي أمانه الداخلي.

● يستطيع الآباء والمربون أن يمتنعوا عن إعطاء الأطفال فكرة أنَّ: «الفقراء سيظلون علي فقرهم»، وأنَّ الوضع السيئ الراهن سوف يستمر طويلاً، وأنَّه لا أمل في أي تغيير.

بل يجب أن تبقي وتظل لدي الأطفال فكرة أنَّه من خلال الجهود الفرديَّة والجماعيَّة يمكن علاج الأوضاع الاقتصاديَّة لأي مجتمع، وأن يضربوا لهم أمثال حيّة من الشرق والغرب،فدولة «ماليزيا» استطاعت أن تكون من صفوة دول العالم بعد أن كانت من البلاد المتخلفة اقتصاديًّا .